ويجب علينا أن ندرك أن بياجيه لم يكن اهتمامه الأساسى وصف قائمة بمتطلبات كل مرحلة قدر اهتمامه بمحاولة وصف هذه المرحلة لتعطينا فهماً أعمق لتفكير الأطفال وإذا كان علينا أن نفيد من ذلك فإنه يلزمنا القيام بمزيد من الأعمال التجريبية ومشروعات المناهج المنبثقة من الأنشطة الواجب توافرها خاصة ونحن نعلم من نتيجة الاختبارات أن غالبية الأفراد فى سن المراهقة أو حتى الرشد لم يبلغوا مستوى التفكير الصورى الذى يراه بياجيه بل أن كثيراً من أعلى المستويات الفكرية ما زالوا يعانون مما يسمه بياجيه بالهوة Decalage أى اندحار مستوى التفكير فى العلاقات الاجتماعية مثلا عن مستوى التفكير فى العلامات الدراسية أى أن الفرد قد يكون على مستوى التفكير الصورى فى حالة مناقشته لقضية علمية ولكنه يهبط إلى مستوى التفكير الحسى فى مناقشته لقضية اجتماعية .

النمو الاجتماعى

النمو الاجتماعى يشمل كيفية التعامل مع الخبرات الاجتماعية وكيفية التأقلم مع الجو المحيط به المكون من الكبار والرفقاء . وتبدأ هذه العلاقة الاجتماعية بالعلاقة بين الوليد والأم (أو — بديلها) وهذه العلاقة يمكن أن يطلق عليها لفظ النسق طبقاً لمـــا هو شائع فى دراسة أنماط النمو المختلفة وهذا النسق الانفعالى هو علاقة بين طرفين تميزها المشاعر القوية والاهتمام المتبادل أى أنه علاقة تأثير وتأثر فالطفل يبكى والأم تقترب فيصمت الطفل فتناغيه الأم فينظر الطفل إلى الأم وتبتسم الأم ويبتسم الطفل إلى أن يصل هذا التأثير إلى مرحلة التوقف عندما ينهى هذه العلاقة أحد الطرفين ولقد قامت دراسات كثيرة على الأنسقة الانفعالية التى تشكل هذا الجانب من النمو بين الحيوانات الأولية ورغم أن هناك خلافات بين الوليد البشرى والوليد الحيوانى فى سرعة النمو إلا أن التشابه فى المراحل يجعلنا

ننظر بثقة إلى هذه الأنماط لدى الحيوان على الأقل كدليل فى دراستنا لها عند الإنسان ولقد درس هارلو وزوجته Harlow & Harlow سنة ١٩٦٦ هذه الأنسقة الانفعالية لدى القرود وتوصلا إلى وضع سلسلة من المراحل تمر فيها هذه العلاقة وفيما يلى النتائج التى توصلا إليها .

أولا فيما بين الوليد والأم حين يكون مصدر التأثير الوليد :

١ ــ مرحلة الأفعال المنعكسة وهى مرحلة قصيرة تقوم فيها الأفعال المنعكسة بضمان الحياة له عن طريق المص والقبض على الأشياء والتتبع البصرى للأم .

٢ ــ مرحلة الالتصاق والراحة وهى التى تصبح فيها أفعال الوليد إرادية أو شبه إرادية ،يتكون - لدى الطفل شعـــور بالأمان فى وجود الأم .

٣ ــ مرحلة الأمان عندما يحس الطفل بالأمان يمكنه أن يترك أمه لفترة قصيرة ليعود إلى قاعدة الأمان لديه وفى فترة الانفصال القصيرة هذه يتم فيها التعرف على البيئة وينتج عنها شعور بالثقة فى النفس تشكل خطوة أساسية للمرحلة التالية .

٤ ــ مرحلة الانفصال حين تكتمل العلاقات بين الأقرانوتتوقف الأم عن كونها المصدر الرئيسى للتأثير فى حياة الطفل .

أما فيما بين الأم والوليد حين يكون مصدر التأثير هو الأم :

١ ــ مرحلة الالتصاق الأموى والحماية وتتميز بالتقبل التام للوليد وبذل الغالى من أجل سلامته ــ وحمايته عن طريق التغذية وإبعاد الأخطار والالتصاق الجسدى .

٢ ــ مرحلة المشاعر الوجدانية المتكافئة والمتضادة ففى هذه المرحلة

الانتقالية تسمح الأم للطفل بتركها لمدة وقد تشجب اعتماده الكلى عليها وتعطيه فرصة لاستكشاف البيئة وقد تشذب من سلوكه ولكن بحنان إلى حد ما .

٣ – مرحلة الانفصال والرفض وقد يصل إليها النسق الانفعالى بين الحيوانات مبكراً جداً عن الإنسان حين تعطى الأم اهتمامها الكلى لوليد آخر وترفض الإبن السابق وقد يكون الرفض واضحا جداً فى الحيوانات مؤجلا عن البشر وفى كثير من الأحيان يكون هذا الفطام النفسى قاسياً على الطرفين عند البشر .

وقد تتضح هذه المراحل عند الحيوانات أكثر من البشر لقدرة الباحثين على الضبط فى الظروف – التجريبية وهذا النموذج الذى وضعه هارلو وزوجته يساعدنا على تفهم النسق التبادلى لهذه العلاقة كما أنه يشير إلى استخدام المماثلة والمواثمة التى أشار إليهما بياجيه فى عملية التوازن . ولا يمكننا أن نغفل الأساسيات التى يتبعها الطرفان فى المساومة للعلاقة بين الطرفين فهناك خصائص الإثارة عنـد الطفل تشكل الاستجابات لدى البالغ مثل براءة الأطفال وضعف الوليد وحاجته للحماية مما يستدر مشاعر الحماية لدى الكبار بغض النظر عن الوسط الثقافى ولقد توصل كثيرا من الباحثين إلى أن ابتسامة الطفل تجعل منه شيئاً مثيرا يجذب إليه الكبار مما يزيد فرص البقاء لديه . (Cann 1953, Korner 1974)

الابتسام :

وننطلق من هنا إلى الحديث عن الابتسام فابتسامة الطفل هى أول إجراء اجتماعى يمكن لأى فرد – أن يلاحظه بسهولة وتمر هذه الابتسامة بمراحل عديدة . المرحلة الأولى وتستمر من الميلاد حتى خمسة أسابيع تقريبا وهى مرحلة الابتسامة التلقائية وهى عبارة عن تشنجات لا معنى لها ولا هدف لها ولكنها متصلة به وناتجة عن تقلصات فى الأعصاب وفى المرحلة الثانية يأتى الابتسام الاجتماعى وهى استجابات لمثيرات وهذه

الاستجابات تأخذ طابع الإرادية إلى حد كبير وتمتاز بالانتقائية فهى لا تعطى إلا فى أحيان ولمثيرات منتقاه وتظل دائرة الانتقاء فى الضيق حتى تستقر تجاه أفراد معينين وتتميز بحركات واضحة كإتساع حدقة العين وانفراج الشفتين والأسارير وتستمر حتى سن ستة أشهر وتأتى بعد ذلك مرحلة التميز للابتسامات أى أن هناك ابتسامات متميزة للأفراد . وتلك الأنواع من الابتسامات تستلزم نضجاً فسيولوجيا معيناً يتم مع القدرة على التحكم فى حركات الوجه . ويمكننا أن نقول أن الطفل قد حقق أول انتصار اجتماعى عندما يبتسم فيثير عند البالغين شعورا بأنه دمية حية يحلو اللعب معها فتزداد فترات اللقاء والالتصاق .

ويتطور الابتسام إلى الضحك عندما يواجه الطفل الغريب من المواقف والجديد منها ولكن هذه الغرابة أو الجدية يجب أن تكون فى حدود تقبل الطفل ونموه المعرفى .

ويبدأ بعد ذلك التعرف على الأفراد فينشأ شعور بالالتصاق مع فرد أو أفراد معينين — والالتصاق Attachment يعتبر رابطة قوية بين فردين اساسيين أحدهما الطفل ويعبر الأطفال عن هذا الشعور برغبتهم فى أن يمسكوا بتلابيب هذا الشخص أو فى أن يرفعهم إليه أو بالصراخ إذا ما تركهم والتقاط الفرص للقرب منهم ويتكون هذا الشعور قبل تمام السنة الأولى ويتم دائما بين الطفل والأم ويتطور فى مراحل ثلاث أولها مرحلة الالتصاق بالبيئة ثم بالأفراد بصفة عامة ثم بأفراد معينين حين يكون الطفل غير مستقر فى وجود الغرباء أو حين تركه معهم . ويلاحظ أننا قد أكثرنا من ذكر الأم ليس لأن الأب لا يلعب دوراً فى هذا النسق الانفعالى وإنما لكثرة غيابه عن المنزل من ناحية ولأن وجوده دائما ما يقع فى الظل فى حالة وجود الأم من ناحية أخرى ورغم أن هذه الفترات من القلة بمكان إلا أننـــا لا يمكننا إغفالها ففترة قصيرة

مشحونة بالانفعالات قد تغطى على فترات طويلة يتخللها الفتور أو عدم الرضى والملل .

نظريات تحاول إلقاء الضوء على الإلتصاق :

تختلف هذه النظريات طبقا للصيغة الفكرية التى تنبع منها ففى نظرية التحليل النفسى يعتبر الالتصاق نوعا من العلاقة بشىء ما Object relationship وتبريرات وجود هذه العلاقة تتميز بإشباع الرغبات والحاجات الأساسية عندما يصبح مصدر الإشباع هو المثير أو الشىء المحبوب أما نظرية التعلم الاجتماعى فتشير إلى هذا الشعور بإعتباره إتكالية يعززها سلوك الكبار تجاههم أو ما يتبعها من إشباع للحاجات .

العوامل المؤثرة فى الإلتصاق :

هذه العوامل الثلاثة متكاملة أو منفردة قد تؤثر على الإلتصاق كما أو كيفا أو كلاهما :

١ — القلق أو عدم شعور الطفل بالأمان يزيد من وقت الالتصاق وحجمه ونوعه .

٢ - كمية الإثارة الاجتماعية التى يعيش فيها الفرد واللعب الموجودة معه.

٣ — مدى غرابة الأشخاص الذين يتلاقون معه .

ويكبر الطفل وتكبر معه دائرة التعامل مع الأفراد ويدخل قرناء اللعب ونفس العمر لكى يجد الطفل فرصة التعامل واللقاءات وجها لوجه مع الآخرين الذين يلعبون دوراً هاماً فى حياته — وينشأ ردود فعل مختلفة تجاه هؤلاء الأفراد مثل المساعدة والتعاون والإيثار من ناحية أو العدوانية من ناحية أخرى. ولعل ماذكرناه فى النمو المعرفى عن التمركز حول الذات والتخلص — منه مع إطراد الأطوار النمائية يشير إلى أنه الأساس فى

المعاملات الاجتماعية ويتضح ذلك فى أنماط اللعب التى يمارسها الأطفال والنشاط التمثيلى للأشخاص برغم عدم وجودهم مما يؤدى إلى تكون الامبائية Empathy وهى القدرة على تفهم مشاعر الآخرين ودوافعهم ولقد أكد كثير من الباحثين على أن الأطفال فى سن الحضانة لايعرفون مشاعر الآخرين تجاههم فحسب وإنما يحاولون أيضا تفهم هذه المشاعر وعندما يكبرون قليلا يتمكنون من إدراك المسئولية الاجتماعية التى قد تطلب منهم وتزداد هذه المسئولية بين أفراد الطبقة العاملة .

(Bowlby 1958 , Ainsworth. Bell, AndStayton1971, Clark – Stewart 1973).

العدوانية :

أما العدوانية فقد يظهر السلوك العدوانى عند الأطفال فى أشكال مختلفة أو أغراض مختلفة ومن الصعب أن تميز السلوك التوكيدى والسلوك العدوانى لدى الأطفال الصغار وقد لاحظ الباحثون تطورات نمائية فى السلوك العدوانى فبعد سن الثالثة تختفى نوبات العناد العصبية وتظهر نوبات العدوانية الثأرية كما أن ردود الفعل لدى الآباء والأمهات تختلف بإختلاف أعمار الأطفال ونوعية سلوكهم كما يجب علينا أن نضع فى الاعتبار نمط الثقافة الذى يكون فيه الطفل وما يسمح به من أشكال العدوان ولقد حظى السلوك العدوانى بدراسات كثيرة لمحاولة التوصل للاسباب التى تؤدى إليه :

– أصول بيولوجية باعتباره سلوكا شائعا بين الأفراد النوع –

– أصول اجتماعية باعتباره سلوكا متعلما من الأفراد والنماذج المحيطة بالفرد .

– أصول نفسية باعتباره رد فعل لمشاعر الإحباط أو باعتباره وسيلة للتنفيس . ولايجب أن ننظر إلى العقاب كوسيلة كف للسلوك العدوانى

فقد يؤدى إلى إعطاء نموذج يجب تقليده أو إلى إنشاء علاقة إرتباطية بين العقاب ومن يقوم به أو على الأقل كبت الاستجابة دون محوها ولكى يكون العقاب فعالا فى التصحيح يجب أن يرتبط بعلاقات ودية أى أن الثواب مع الآداء الحسن يظهر فعالية العقاب للأداء السيء كما أن العقاب الذى يصاحبه تبيان للطريق السليم أو تعليل له يكون أكثر فعالية من أجل العقاب وذلك الذى يمارسه كثير من الناس .

وعلى أية حال فإن العدوانية ذاتها ما زالت تخضع لتفسيرات كثيرة وتعريفات متنوعة تنبع من الثقافة التى يكون فيها .

ومع نمو الأفراد يزداد تفهمهم للمفاهيم الاجتماعية المجردة وما يمثله كل دور اجتماعى وتتشكل ميولهم الاجتماعية ويتحدد دورهم مع تميز هويتهم عندما يدركون دورهم الاجتماعى القائم على نوع الجنس .

الدور الاجتماعى القائم على نوع الجنس :

رغم أن هناك آراء كثيرة فيما يختص بالدور الاجتماعى القائم على الجنس فإن هناك رأى يقول بأن التكوين البيولوجى للإنسان قد يحدد سمات الشخصية من حيث مستوى النشاط والسلبية مما يجعل الأولاد أكثر عدوانية وأقل إتكالية من البنات بينما يرى آخرون أن هذا الدور سلوك اجتماعى مكتسب من خلال عملية التنشئة الاجتماعية .

التنميط الجنسى Sex Typing

ففى مسار النمو يبدى الأولاد والفتيات ميلا لإظهار أنماط السلوك التى ترتبط بنوع الجنس الذى يمثلونه وعندما ينتقل هذا الميل إلى سلوك دائم يتفق مع ما يصل بالنسبة لنوع الجنس الخاص بالفرد فإن ذلك يعتبر تنميطا جنسيا يميل أكثر الباحثين إلى اعتبار التنشئة الاجتماعية أساسا لإيجاده والتنميط الجنسى لا يعنى مجرد تقليد الشكل وإنما يعنى التقمص والتقمص

يشمل إكتساب أنماط السلوك الاجتماعى الخاصة بذلك الجنس ومشاعره واتجاهاته وقيمه وطرق إظهار هذا السلوك . ويختلف الباحثون فى رؤية نشوء هذا الشعور بالهوية القائمة على الجنس .

يعزو اتباع مدرسة التحليل النفسى نشوء هذا الشعور إلى عامل أساسى هو الأبوين فالطفل يتعلم أن يصبح مثل مثيله فى الجنس كنوع من ميكانزمات الدفاع الذى يستخدم فيها التقمص (أو التوحد الأوديبى) فيحاول الطفل أن يتقمص شخصية أباه سلوكا ومشاعر وإتجاهات وتحاول الطفلة أن تؤدى نفس العملية مع أمها ومن ثم فإن سلوك الآباء والأمهات هو الذى يحدد شكل هذا التنميط الجنسى ولما يحتاج الأطفال فى هذا التقمص يعتبر نجاحهم فى حل العقد التى تنم عن الصراعات فى المرحلة القضيبية . وبمدى تطابق سلوك الآباء والأمهات مع القيم السائدة فى المجتمع بمدى إمكانية عدم وجود صراع بين مايتبناه الطفل من سلوك وبين مايميزه فى الأشخاص الآخرين ولكن ذلك لايعنى عدم وجود الأساس البيولوجى لهذا التنميط فالفروق البيولوجية بين الجنسين تلعب دوراً هاماً فى إعداد الطفل لما قد يقابله من أنماط السلوك رغم أن هناك بعض التعديات بين الجنسين مثل مستوى النشاط والعدوانية حين تلعب الفروق الحضارية دورها فى تعديل هذه المظاهر . وقد يلقى علماء الأنثر بولوجى بثقلهم تجاه هذه الفروق الثقافية .

بينما يرى أتباع النظرية النمائية المعرفية أن التنميط الجنسى يسير على نهج النمو المعرفى فالطفل فى أطوار نموه يكتشف أن لديه بعض من صفات جنسية تناقض ماكان عليه فى الطور السابق فيشعر أنه ينتمى إلى فئة معينة (ذكور – إناث) ومن ثم فيبدأ فى تصنيف نفسه فى الفئة التى ينتمى إليها وهذا التصنيف فى حد ذاته وسيلة لتنظيم الخبرات وأنماط السلوك الخاصة بالفئة فيدرك الطفل أن هذا النمط لائق أو غير لائق طبقا لما تحدده معايير كل فئة فيبدأ فى لفظ السلوك الذى يرتبط بالجنس المخالف فتفاجأ الأم بإبنها الذى كان يلقى بنفسه بين أحضانها يمسح بيده قبلاتها من على خده

ترى ابنتها ملازمة لها فى المطبخ رافضة أن تلعب مع أقران عمرها من الذكور ويتم ذلك مبكرا حتى قبل أن يتحدد مفهوم الذكر والأنثى لديهم وإنما يكتمل بإكتمال تكوين هذا المفهوم .

ويرى أتباع نظرية التعلم الاجتماعى أن التنميط الجنسى ناتج عن النماذج التى يهيئها المجتمع وأن العلاقات بين الأفراد هى التى تحدد الدور الجنسى ويعتبر ذلك فى جانب مخالف لما سبق أن وجدناه فى رأى أتباع مدرسة التحليل النفسى والنظرية النسائية المعرفية اللتان تريان أن هذا النمو يأتى من إحساس داخلى لدى الفرد ومن تطور صفات وقدرات معينة داخلية فيرى أتباع نظرية التعلم الاجتماعى أن نمو الدور الاجتماعى القائم على الجنس يتحقق مثل ما يتحقق غيره من أشكال النمو الاجتماعى أو الانفعالى و ذلك من خلال التعلم بالملاحظة فالطفل يلاحظ نماذج خاصة بجنسه ويبدأ فى تقليد هذه النماذج ومن ثم فإن الطبيعة النهائية لما يتعلمه تتحدد عن طريق المتغيرات الموقفية والشخصية والتى تدخل فى نطاق التعلم وشروطه من تعزيز وتكرار ولكن هذه الصورة البسيطة لا يجب أن تشغلنا عن الأساس الذى عن طريقة يتم إستمرار هذا التنميط الجنسى وهو إنتقال التعزيز الخارجى إلى التعزيز الداخلى أى إستدخال هذه الأنماط ويلعب الوالدين دور النماذج المقلدة قبل ان يحتك الطفل بنماذج أخرى مخالفة أى أن الأب والأم سيشكلان :

١ — مصدر المعلومات الخاصة بالدور الاجتماعى .

٢ — النموذج الذى يمكن أن يقلد .

٣ - مصدر التعزيز لما هو مقبول والردع لما هو غير ذلك .

وقد يكون من الخطأ النظر إلى نمو الدور الاجتماعى القائم على الجنس منذ البلوغ فقط ولكن يبدأ قبل ذلك بكثير ولكن رغم أنه يبدأ منذ مولد الفرد فصاعدا وإن الفرد ببلوغه فترة المراهقة يكون قد قطع شوطاً طويلا

فى إتجاه الذكورة أو الأنوثة وبوصول الفرد إلى مرحلة البلوغ تتخذ هذه العملية مساراً أكثر تحديداً خاصة وأن هناك عوامل جديدة قد نشأت بوجود الثورة الفسيولوجية أثناء البلوغ التى تهدد صورة الذات الجسمية Bodyimage ويتمزق عند الفرد الاتزان الليبيدى (الجنسى) السابق ويشعر الفرد فى هذه المرحلة بحاجة لأن يستقر على ذاتية أو هوية جديدة بحيث تتم هذه الخطوة بصورة تكفى للفرد إمكانية الإحساس بالاستمرارية والاتصال ويرى أريكسون Erikzson أنه مثلما يحدث بالنسبة للاعب السيرك فعندما يصل الشخص صغير السن إلى منتصف حركته النشطة لابد من معاونته على أن ينتقل من نشاطات الطفولة أو مستوياتها السلوكية الآمنة إلى أعقاب عالم الرشد بما يتضمن هذا العالم أو يشتمل عليه من أدوار ومسئوليات على أن يؤخذ فى الاعتبار خاصية الاتصال بين الماضى والمستقبل وهكذا يمكن القول أن الهوية أو الذاتية ليست عبارة عن حاصل جمع تقمصات الطفولة بل هى تركيب جديد إلى حد ما يضم فى تكوينه أجزاء من تقمصات قديمة وأخرى من تقمصات جديدة .

ويتجه المراهق فى تمرده على الأوضاع السابقة ومن بينها سيطرة الوالدين إلى جماعة الأقران بحثا عن الأمن فيساير هم كإجراء دفاعى لكى يحمى نفسه من تشتت الذات وقد يؤدى به ذلك إلى إختيار هوية جاهزة أى يضع نفسه فى قالب رآه لأن يخلق قالبه بنفسه وقد ينقلب هذا الرفض إلى ثورة كاملة وخاصة عندما يشعر المراهق بنوع من التعويض أو الإحباط المتتال من جانب الراشدين الذين يتعامل معهم فينخرط فى صور اجتماعية تتصف بالتحريف وعدم التقبل ومن المخاطر التى يواجهها المراهق فى هذه المرحلة تشتت الذات وعدم القدرة على حل الغموض الذى يحيط بهويته خاصة وأن التقاليد والأعراف الثقافية ليست محددة المعالم بل وتسمح بتفسيرات وتأويلات كثيرة مما يجعل المراهق فى حالة ضياع بين متغيرات لا يدرى الأنسب منها ورغم أن إعطاءه حرية الاختيار تمثل حقا له إلا أن عبء الاختيار أقوى

من أن يتحمله بمفرده ونجد أنواعا كثيرة من المراهقين نوع ينخرط فى إطاعة الأوامر الصادرة من الراشدين حتى لا يتحمل مغبة النتائج فهو يعمل ما يطلب منه وليس عليه أن يضمن النتيجة ومن ثم فقد جنب نفسه اللوم. ونوع آخر (وخاصة بين طلبة الجامعات) يجنح للرسوب لأنهم يرون فيه سبيلا يكفل لهم إمكانية التوقف عن الوفاء بمتطلبات الأهداف المنوطة بهم أو كإجراء دفاعى للتهرب منها. بينما يندمج نوع ثالث فى التفكير فى المستقبل أكثر من الحاضر كمحاولة لتخطى هذه المرحلة فيتصرف كراشد مسئول ويبذل قصارى جهده فى مقابلة التوقعات التى تناسب دور الكبار فيفكر فى الكسب والإعالة ويبعد عن سلوك الشباب الغرير وقد يتحمل مسئولية داخل منزله ويتنازل عن بعض حقوقه ونوع رابع يحرص على الإشباع الفورى المباشر للأهداف الوقتية والبعد عن التفكير فى المستقبل وطموحاته وتوقعاته الأمر الذى يترتب عليه بتر أو إختصار فترة إستمتاع بالطور النمائى الذى يمر به وكلا المحاولتين الأولى التى تحاول إيقاف عجلة الزمن خوفا من المستقبل، والثانية التى تحاول الإسراع بها خوفا من الحاضر تؤدى إلى تشويه الطور النمائى وأن الظروف الثقافية لمجتمع ما هى التى تحدد بدرجة كبيرة الأوضاع التى يرى المراهق نفسه فيها كما أنها تحدد المظاهر الخارجية للهوية الجنسية والأساليب الاجتماعية والحياتية المتصلة بهذا الدور.